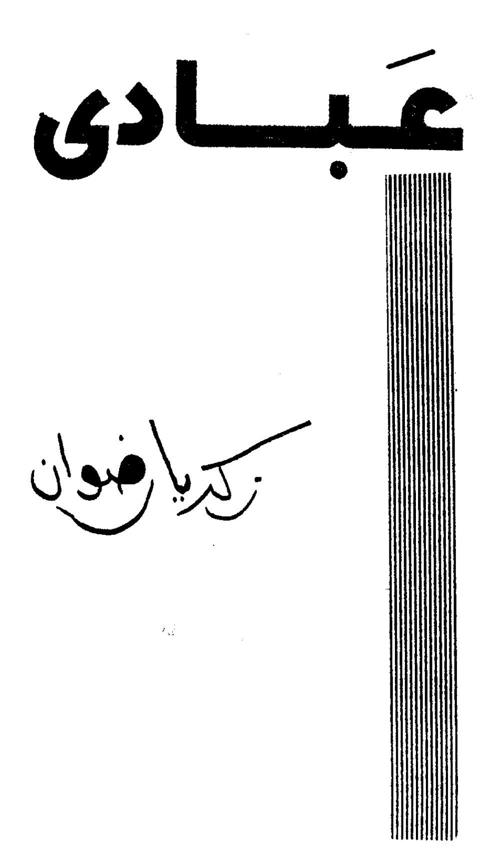
الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم القناة وسيناء
فرع ثقافة بورسعيد



إلى عم عيد ..
بائع الحلوى بشارع عبادى

ز.ر

الجزء الاول

امارات العشق

أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون
بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار
ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور.

صدق الله العظيم

هناك اغتيال هادىء يشبة القتل بالمسدسات الكاتمة للصوت ..
هذا النوع من الاغتيال وإن لم يترك وراءه صوتاً فإن صداه يبلغ مسافات فى الزمن أبعد كثيراً جداً مما يتصور القتلة .

قول :
الزمن أعظم مؤلف

إيش يقهر الطير
غير قلة المغنى
وإيش يفسد القول
غير قلة المعنى

ألا ياضحايا الظلم
فى الأرض كلها
أنا بورسعيد
الرمز والعنوان

صلاح جاهين

1

إمتثال تفترش المساحة الباقية من الغرفة تسند ظهرها إلى النافذة الموارية ، الوحيدة المتبقية دون اغلاق واحدة من أربع الثلاث الأخر أحكم إغلاقهن قبل أن يموت أبى سحبت نفسًا من البانجو خيوط الدخان ثعابين صغيرة تعدو نحو السقف ، تلتهم احداها الأخرى ، الثعبان الاخير يطوف حولنا .
ينبسط قليلاً ثم ينفجر دوائر صغيره متعرجة أعدل وضع الوسادة تحت رأسها راحت عيناها فى رحلة قصيرة ثم عادتا متعبتين تتنهد :

- ماقلتيش رأيك فى كتابى الأخير .

إحساسى بعينيها تقتربان يطلق اللسان من لجامه .

- مجموعة قصصية جميلة ملآنه بالابداع،تقرب عينيها الان نحو القلب

- سيبك من المجاملة رأيك إيه فى الشخصية المحورية ؟

رحت ألف لها - هرباً - سيجارة متخمة :

- خلى با لك صوابعك بتتحرق .

سددت عيناها ألف سهم الى القلب :

- إية اللى حايشك يا يحى ؟

أواصل التحديق فى أصابعها

- واضح إنك بتكرهيه عمى .

تكشف أن أصابعها تقترب من الاشتعال .

تنقل اللفافة إلى اليد اليمنى .

- مش باقولك إنك خبيث جداً
- الجريمة الأساسية موجود عندك نفس الأستعداد لارتكابها و ...

توقفت عن الكلام عندما وقع عقب السيجارة .

.. كان الحريق قد بدأ يشتعل فى طيات ملابسها .

2

فى الليلة الثالثة لموته زارنى .

كان مرتدياً ملابس الإحرام .

وجهه شمس،كفاه،مرفقاه لآلى من نور .

- اليوم جيتك لأنك طلبتنى.
- أأمرنى.
- هى نصيحة واحدة . لو عايز الخير لنفسك أترك الشبابيك مقفولة .
- يابا أنا محتاج نور .
- نصحتك وأنت حر . وخلى بالك،جايز ماتشوفنيش بعد النهارده .

فرد ذراعيه على استقامتهما ابتعدت حوائط الغرفة . إختفى.

حين صحوت فى اليوم الرابع وجدت الغرفة قد امتلأت عن آخرها بالعقارب

3

قالت الجدة وهى ترمقنى بعينيها الغائرتين ، والبحر يطرد زواره آخر النهار

- البلد دى براويه بتاكل ولادها .

رحلت بعينيها برهة مع الموج المتدافع كأنها ترصد تعاقبه :

- والدك مات ولا فايده من أى شىء .

قاطعتها بحدة :
- والبحر يا جده مجرد مقبرة ؟
ردت بابتسامة شاهدة :
- البحر يابنى عمره مانسى
سلمت لجدتى ناصية الكلام .
- منذ الصبا تعلمت أن البحر أخاذ
كنا نجرى إليه مهرولين إذا أردنا الشكاية من الغصة التى وضعتها المدينة فى حلوقنا .
- نعم يا ست الستات البحر عمره ما نسى ، إحنا اللى رقدنا جوه الزقق وبعنا أيامنا بالتراب .
تنهدت الجدة ، فأحست روحى بالصبا يجرى بها معربداً :
- الله يرحم والدك .

4

- آن الأوان لنعترف .
يطرق صدره بعلبة السجائر طرقات متوالية قابضًا عليها بطرفى يدية المبتورتين . يقربها من فمه مخرجاً سيجارة يعلق طرفها بشفتيه بنهم لا يرتوي
- ما حصل يوم 24 ديسمبر فى قصر الثقافة بلا مبرر .
- لكنكم أنجزتم شيئاً ، ولولا ما تم ما عرف الناس عبد الحميد شبانه .
قاطعنى وهو يفرك طرف السيجارة الملىء بالتبغ بطرفى ذراعيه .
- آخر علبة معانا .
- أنا شخصياً حادث 24 ديسمبر كان نهاية غربتى الطويلة عن

بورسعيد .
أشعل السيجارة،إبتلع نفسًا طويلاً لم يخرجه .
- السهرة حاتطول والسجاير بح .
شردت طويلاً إذ بدأ ينفث الدخان في وجهي دوائر، مربعات مثلثات ،وأشكال أخرى لم أستطع تحديدها ،وفكرة واحدة تتسلل إلى، تتجمع،تتورم ،تستقر في ارتياح عجيب داخل ذهني:
المناضل عبد الحميد شبانه لا يستطيع البقاء حياً دون سيجاره سوبر ورفيق يشترى له وجبة الطعام .

5

حول السور الفاصل بين الجامع العباسي ونهاية شارع محمد على حيث تتصل بورسعيد بسائر أقاليم مصر براً،وبسائر موانئ العالم بحراً ، كان عم السيد السناني يمر مروره الأسبوعي يودع الخارجين بعيد صلاة الجمعه . يرفع السناني رجله اليمنى ثانيا إياها شيئا ما يحجل على رجله اليسرى ، مطوحا بيديه . يضرب بهما سقفاً وهميًا .
يصيح السناني :
اتسرقت . اتسرقت سرقوني ولاد اللبوه .

6

قاربت الحصة على الانتهاء . آخر الحصص . بعدها يقرع الجرس. تفتح أبواب السجن المدرسة . أنطلق عائداً إلى حجرتي حيث لا شيء سوى مكان لدولاب الملابس التي عدت بها من الاعارة والسرير حيث تنتظرني زوجتي وطفلانا . وفي الصالة التي يأكلون عليها طعامهم تقبع العجوز أمي انتظاراً بعد نهاية يوم قديم من عام أقدم من عمر جاوز حدود القدم .

- تدرون يا شباب ما الفساد ؟
التقطت أنفاسى مختلطة برائحة الدخان المحتبس فى صدرى من طلعة النهار. بصعوبة أخذت أكتم الكحه قرب حلقى .
- الفساد تغليب مصلحة الأقلية إذا تناقضت مع مصالح الأغلبية .
أحدهم من أوسط الصف الأيمن من جهة النافذة التى بلا زجاج صاح :
- هل يوجد علاقة بين الفساد والشيوعية ؟
انطلق الجرس ، وانطلق الاولاد خارجين وأنا أتقدمهم ، يتخبطوننى . أشعر أننى سفينة قديمة تسبح فى بحر من الأجساد المتلاطمة. ومن خلف أذنى تأتينى أصواتهم الزاعقة :
- يا شيوعى

7

عند الباب المفضى الى الساحة التى تدخل منها الجثث للصلاة اعتلى السنانى السور الملمع حديثا باللون الأخضر، يده اليمنى تلتف حول السنبلة الصاعده كرمح فى وجه السماء مثل حية ذات خمس رؤوس ، وبالأخرى يلوح فى وجه الداخلين وراء النعش المغطى بالمخمل الأحمر الوردى، صوت السنانى فى وجوه بعضهم وظهور البعض يجلجل :
فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون .
فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .
فلا يأمن مكر الله ،
فلا يأمن ...

8

كانت رجلا أحمد خلف ويداه تد ذابت مشيا وجسمه ذاب انحناء،

يصرخ :

إيديه وركبى انهرت من المشى يا جناب الأغا .

يتسول أحمد خلف السماح له بأن يعدل قامته

يتوسل :

أمشى أنا بقى يا جناب الأغا ؟

ولم أكن فى ركنى القصى من المنصة أدرك أن الأستاذ عباس مخرج النص قد خرج عن حدود صبره حين كان صياحة يملأ المساحة المعتمه التى كنت اجلس تحتها وقد أخذتنى غفوه :

- اصحى يا نايم السكريت وقع منك .

نظرت فى معصمى فاذا الساعه تهرع نحو الثامنه والنصف. تاقت روحى الى الفراش حتى الموت . هممت أن ألقى بالنص فى وجة الاستاذ عباس واتجه من فورى الى باب القصر، ومن ثم إلى بيتى الذى غادرته فى مطلع الشمس ومعدتى تلتوى على نفسها وأمعائى تصيح داخلى طلباً لكوب شاى وسيجارة كايرو، حين اتجة إلى الأستاذ عباس وفى يده نسختى من السكريت وقبل ان يناولنى إياها وجدت نفسى أهتف :

أيوه يا بو حميد قول : امشى أنا بقى يا جناب الأغا ؟

9

بيده الخشبية تناول عبدالحميد رشفة قهوة. التفت ناحية الخارج المطل على شارع نجيب الريحانى ،حيث كان الوقت يخلو من الحركة بما يشبه الموت .

حين عاد ينظر الى تبينت اثر الشظية التى أصابت عينه اليمنى

فى السويس وأن الأخرى ينسحب عليها لون داكن ، وتبين لى كم كانت مساحة البياض فى عينيه قليلة .
قال :
- أحتاج إلى مائة جنيه لحين ما اخلص ورق معاش الإصابة ...
قاطعته :
- إمتثال إيه أخبارها ؟
وكأن هذا السؤال هو ما كان عبد الحميد يتوقع فى تلك اللحظة بالذات :
- هى فى بيت أبوها
مستغرباً قلت :
- ليه مش معاك ؟
- غضبانه من ...
- اللهم اجعله خير
- بتقول انى مسود وشها لكل من كان .

قلت محاولاً تفتير الإنفعال المتصاعد بالأزمة داخلى :
- الميت جنيه يتدبروا .
وكأنى تذكرت شيئاً على نحو فجائى :
- تعرف يا عبد الحميد مشكلتك هى قدرتك على نقل الدوامة اللى جواك لبره ...
وعندما تصافحنا مفترقين انبعثت فى رأسى فكرة مثل سهم مدبب .
- نسيت أقولك ،الأوده حاستلم مفتاحها اول الشهر .

وهبت عمْرى للأمل

ولاجاشي

وصوت الشيخ إمام عيسى يذوب حوائط الغرفة بالحنين، وعبد الحميد مستنداً على ركبته اليمنى جالساً، يضع براد الشاى على السبرتاية التى راح لهبها يشق مساحة الظلمة بضوء متراقص .

- أقولك حاجة يا عبد ، أصبحت الآن خبير سعادة .

ينظر عبد الحميد إلى لسان اللهب الماجن الصاعد من السبرتاية النحاس، يرمقنى بعين مبتسمة .

- ما تنساش الاشتراكية فيها جانب رومانسى

يصعد البخار شريطا رماديا ناعما يتسلل دفؤه الى قلبى، يتبخر معه برد كانون المسنن بأسياخ من الرصاص .

- الشيوعى انسان سوبر

والكاسيت الذى اشتراه عبد الحميد من أول معاش الاصابة بداخله يدور الشريط دورته الخلابة مجلجلا بصوت إمام عيسى

ورعيت لمحبوبى هواه

ماراعاشى

والليل عليه طويل

وانا العليل

موجود دواه

بس الطبيب

مرضاشى

والصبر فين

الصبر فين ...

ولون الشاى الأسود يشى بسهرة سوف تطول .

... .

الصباح ما يزال بعيداً ينتظر مثلنا نهاية .
ولا يزال الليل يرتعش بالحنين .
والشيخ إمام ينساب فى جنبات القلب صوته
يا ليل يا عين
يا سنين طوال
وليالى ..
عينى على الجمل الأصيل
العالى
لما ينخ بحمل من أحمالى
لكن فى كل صباح
بانسى الجراح
وانقش بفاسى ع الغيطان
موالى
يا ليل ، يا عين ...
وكان الأمل لا يزال واقفاً بالخارج لا يكف عن الدق على النوافذ المغلقة .

11

الحلقة واسعة . البعض كان جالساً ، وكثير منهم لم يجد غير حائط القاعه مستنداً . والأستاذ هو الجالس فى المنتصف ، هكذا أشار أحمد خلف بيده إشاره خفية لاحظتها وحتى قبل أن يدركنا الأستاذ بسؤاله المباغت :

– مين الأستاذ يا خلف ؟

بسرعة لم تخف تلعثمه قال أحمد :

- الأستاذ يحيى مدرسى
بعينين لم أنج من سمهما إلا قليلاً حدق فى .
- نظام محلسه يعنى .
أوشك أحمد ان يجيب . دهسه صوت الأستاذ :
- جايبه معاك عشان يتوصى بك فى الدرجات .
كشرت الكلمات فى حلقى :
- أحمد ده مش مجرد تلميذ عندى .
تجاهل ملاحظتى ، مشيراً فى تجهم إلى من ظهره إلى الباب ،كى يتقدم .
- كمل دورك يا حسن .
سرعان مارفع حسن يديه مبرزاً أصابع مرتعشة، هتف :
- دول ألف جنيه يا مغفل ، ألف جنيه .
وبينما حسن يتقدم رأيت الباب يتسع ، والردهة فى الخلف تنفجر بقعاً ضوئية متناثرة .
سحبت عينى من يد الأستاذ وهو يشير إلى حسن أن يستمر .
بحثت عن أحمد،عثرت عليه مختبئاً داخل رداء من الصمت حالت معالمه ،وحسن لا يزال صوته مثقلا بالنهم
- دول ألف جنيه يا مغفل ، ألف جنيه .
وبقع الضوء الآخذه فى الصغر تتناثر عبر الردهة ، تأخذ فى الاتساع .
وعيناى لا تزالان مشدودتين بوتر سحرى ، نحو ذراعى أحمد ، المتأبطين للصمت .

مهرولين جاءوا ،عشرات منهم أعرفهم ،أحمد فهمى ، على الدالى ، محمد فتحى ، إبراهيم المنشاوى ، السيد النشوقاتى ، وآخرين جميعهم من أولى سادس وعشرات آخرين لا أعرفهم الى غرفة الأستاذ فاروق جاءوا يتصايحون ، وأنا واقف قباله الأستاذ فاروق أتأمل البطاقة التى تبرز من جيب قميصه المنشى عليها صورته وخاتم مباحث أمن الدولة ، واللوحة الخشبية على مكتب ايديال صدىء تشى بمكانة الرجل نقش عليها خط ردىء :

فاروق العنابى اخصائى أول تربية اجتماعيه .. "إن ينصركم ...

بجوار اللافته الخشبية وقف الحاج محمد خلف الله ، وأحمد بين أبيه والأستاذ فاروق قطعة لحم يتناهشانها .

أحجز بينهما اذ راحا يتقابضانه ، تصيبنى لكماتهم ورفساتهم يرتعد باذناى صياح مزلزل بكاء نداء مزمجر :

ظلم ، ظلم ناس مفترية ، حتى أبوه نازل ضرب فيه هو عمل مصيبة ؟ ولا عمل مصيبة ؟ يا أخوانا حد يخلصه من ايديهم .

وصوت الاستاذ فاروق مع صوت الأب والصياح بالخارج تتمازج تكون سمفونية من الرعب :

تحرم تتعامل مع الشيوعى ده والا ندبحك ؟

وأحمد صامت كعادته يتلقى بكل جسده ما طاب لهم أن يضعوا فيه من فيوضات ايديهم وأرجلهم .

وأنا أحاول التحجيز ، أحاول ، أحاول ، اسقط إعياء ....

خرجت والجرس يدق كأنه منذر ، والطلبه مهرولين عادوا الى حجرات الدرس ضائعة فى وجوههم الملامح ،غير شىء واحد غطى على جميع الوجوه اخذ يكبر حتى رسم علامة استفهام

تتلوى وسؤال ظلوا يلحون فى قوله حتى نهاية اليوم الدراسى :
- لماذا ، يا أستاذ يحى ؟
خرجت منى دون تفكير إجابة كأنى ظللت سنوات أعد لها :
- بكره بمشيئة الله تعرفوا كل شىء .

13

الاسطوانة ما تكف عن دورانها الفياض . تدور السيوف فوق رؤوسنا ، ورقصة النار ، وفتيات البالية البولشوى يحملن المشاعل ، يدرن بها فى الغرفة ، ونحو وجوهنا المرهقة بحلم الليلة الطويل :

العهر فى الاسواق نديم التجارة .

يتممتم عبد الحميد محاولاً بسط اساريره دون جدوى .

- هذا أحلى ما قلت يا عبد .

يروح بصره يدور حول الاسطوانه .

- اسطوانة مدهشة ...
- جايانيه .
- البيت ده من سبع اغانى للصعود .
- اسمع هذا اللحن ، بديع بحق .
- كتبتها فى الضفة الشرقية ، بعد العبور مباشرة .

ينساب منه البيت انسيابا لم تعرف له أذنى مثيلا، يبدأ الدمع فى الترقرق وعينا عبد الحميد يكسوهما الحزن أتأملهما أبحث عن ادنى مساحة للهرب ، لا اجد .

-العهر فى الأسواق ... بس لو كنا نقدر ... ياه الوش خلص . إقلب الاسطوانه .

14

أحمد خلف لم تطفر من عينيه دمعة حين أوسعوه ضرباً فى حجرة المباحث بالمدرسة ، يبكى حتى لا يبقى فى وجهة أنملة لم يكسها الدمع .

– حرام عليك يا جناب الأغا .. هو عشان مش قادر ادفع الإتاوه تقوموا تركبونى ، وتخلونى حمار .. أنا برضه بنى آدم يا عالم .

وأنا أقبض على السكريبت ، حتى لا يقع ولا يكبس على النوم وعبد الحميد يرفع جهاز الكاسيت فى مستوى فم أحمد خلف يتابعه وهو يدور ويدور من اول الخشبة حتى آخرها، زاحفا على اربع يهتف :

أنا برضه بنى آدم يا عالم .. بنى آدم من دم ولحم أنظر إلي الاستاذ عباس فإذا بوجهه يزداد تجهماً ، وقميصه البنفسجى يأخذ في التحول تحت بقعة الضوء المتأرجحه فوق شعرات مدببة في مؤخرة صلعته .. مكتسباً لونا غريباً من الحمرة الضاربة في السواد .

15

وامتثال تضع حقيبه السفر خلف الباب ، المفتوح على سطح منبسط ، كأنه أعد للهبوط من السماء ، يدق عبد الحميد أرض الغرفة الخشبية . تحدث قدماه ايقاعاً ممتلئاً مرحاً،ممزوجاً بصفير دوار مثل عصفور يبحث عن عش أبوية دون أن يكف عن الدوران خشية الوقوع :

صفر يا وابور واربط عندك

نزلنى فى البالادى

أصفق ،مرحبًا بامتثال ، يقاطع صوت عبد الحميد تصفيقى :
- عارفين الأيام دى مش حاتتكرر تانى ؟
أقول منزعجاً :
- يا أخى فال الله ولا فالك .
- يا ريت تفهموا ان الموجه الجاية عالية قوى
- فاهمين لكن
- مالاكنش أنا تعبانه من السفر، وبدى أستريح . خللوا النقاش لليل .
كأن عبد الحميد وجد ضالة ظل يبحث عنها طويلاً :
- ما فيش عشا

16

دخان الشاى يعبق المكان بالسحر . يكشف عن أسرار الدفء المستحيل فى تلك الليالى المتسارعه بالخريف نحو حلم بعيد . زهير يمسك بالسمسمية . يسراه تجرى بين الاوتار الخمس حمامة تهيم بين قطع الغمام المسافر، خده الأيسر يرتكن على مقدمه الآله الذائبة فى شجن الليل ينطلق منا الصوت مبارزاً لها ، يحاول كل منا ان يكون أوضح المنشدين .
فى بورسعيد الوطنيه
وصوت امتثال يتلألأ عشقاً للمدينة . ضيفة لا تزال هائمة وجدا .
شباب مقاومة شعبية
دافعوا بشهامة ورجولية
أصفق ،تطير من بين أصابعى بقايا غربتى ، أنقر فرحي ، أطير فوق الجميع،محلقا نحو ذؤابة السعاده المختبئة خلف ستار النشيد الحريرى .

وحاربوا جيش الاحتلال
مبروك يا جمال .
يقطع اللحن صوت امتثال المرح بارتعاشة ممتلئة بالجنون .
مبروك يا شباب
مبروك يا شباب
أضحك أسمع سقف الغرفة يطقطق،وباب الغرفة تسفعة نسمة
خريفية وحيدة أهتف :
هو الكنال داف أراضيهم
يرد عبد الحميد
ولا أحنا خدناه منيهم
زهير يعلو صوته منادياً :
امتثال
نفيق على نحيبها ، وهى ترتمى فى حضن عبد الحميد، باكية

17

من ثلاثين سنة مخانات ، وتعب،، وتنطيط ، ع المراكب
البساجيرى ، وهز الوسط مع عساكر البوابات الخمسة وعشرين
إنت اللى فاضللى يا سيد يا سنانى التانى ، فى العيلة المتهجرة
من سنة اربعين مراكب . ولنوشة رايحة ومراكب ولنوشة جاية ،
والبحيرة لم زهقت من بكاهم . شايلك انا على دراعاتى فى
الشارع الورانى م العباسى والدانات على رووس العباد مطر
مسموم ، ما عارف نقطة المطره من طلقة الفكرز .
جريت يا اخوانا أتاوى الجثة بعيد عن الغربان. باب الجامع
محشور في الجتت ، ما حد عارف يتويها . وفضلت ادوس
أدوس ،و الدم مغرق هدومى للركب عالق بجلدى ناقع بعظمى .

جاية الناس جرى من ناحية الكباين والحرايق شغاله من طلعة الشمس من ساعة الراجل أبو مكرفون ما قال الروس جايين من البحر عشان ينجدوكم استقبلوهم واستبشرنا يا ريت ما استقبلنا المراكب ما استقبلنا غير الموت جاى يرمح مع ريح بحرى مسموم طارت روح السيد والناس ما لحقت تجرى الا والدانات وراها فى حارة جوه شارع عبادى ورا العباسى ، دفنته المكان اللى اندفنت فيه أحلامه الصغيرة واندفنت معاها سنين عمره العشرين .

سنين وسنين لحد ما طلع البرج . طلبت يشيلوا عضم السيد قبل ما يبنوا . خدونى ع المباحث ،ادونى الطريحة، وقالولى من ده ورايح لو ما بطلتش كلام فى السياسة. . رقالو لى مين اللى وراك، وشوية كلام عن مصالح ناس، صدقونى ما فهمت ربعه .

صدقونى ، صدقونى يا عالم اتسرقت .

يحجل عم السيد السنانى على يسراه ،يطوف بالحاجز الحديدى للمسجد رافعاً يديه مصوباً نحو السماء قبضتيه لا يكف عن الهتاف :

سرقونى ولاد اللبوه .

18

كلام الليل فى مدينتنا غير كلام النهار .. وكلام الليل فى مدينتنا عن اختفاء الريس (عبوده)ريس اللنوشة من غير ماواحد يعثر له على جره . حتى الدبان الازرق لم يعرف طريقه. فات سبت وسبت ،وحد وحد وأربع ثلاثات ، وخمسين ولا واحد يعرف الى متى الريس عبوده يختفى .. آخر كلام الريس لامراته حميده ام محمود أنه رأى رؤية ،فراجل غريب أتاه وحدته بأن البلد محكوم عليها بالغرق إذا لم ينهد البرج المبنى فوق عضم السيد السنانى ، وأنه سيصيبه بلاء عظيم إذ لم يخبر اهل

المدينه بذلك وحميده ام محمود مرات الريس حكت هذا الكلام لام محمد اختها من الأب وهى بترتعش حتى إن شعر ام محمد سقط فما عاد فى راسها شعر ومرات الريس حكت كيف إن الريس بلغها إن الغريب دله على مكان البرج من ناحية الجامع القبلية بالتمام

وحميدة ام محمود صارت تطوف بالجيران ليلاتى على الله تبكى حتى اكمام جلابيتها السوده ما بقى فيها حته ناشفه ، تحكى رؤية الريس عبوده ليلتن راح ولم عاد حدن يعرف له طريق أثر ، والمدينة من دا اليوم ما تبات على شىء الا والكل ماسك ورده يطرد الشيطان بأعوذ برب الناس والناس ماسكين الروس قبلن ييجى ميعاد النوم حيث على كل مخده راس بنى آدم،تحتها مصحف .

19

اجتازت امتثال حاجز الألف ميل قبل أن تصل الى مدينتنا ،هكذا شعرنا جميعا كلما تحدثت عن حياتها ، وحياتنا ، الشوارع الضيقة صارت لها حياة حقيقية ترقص على جنباتها كل المشاعر المستتره فى اضلع الطفلة والصبيه والزعيمة الطلابية . قالت ذات مرة :

وأنا أقف على نافورة كلية الاداب أصيح بالطلبة ان يخرجوا ليتظاهروا ضد أحكام الطيران كأنى كنت أهتف لمدينتكم. يتمثل لامتثال كل شىء أحبته في الوطن عيانا فى كل من ترى من اهل المدينة،جيران الغرف الاخرى أصبحوا يعرفونها،كأنهم عاشوا معها سنوات المعارك الاولى ، والثانيه ، ومعارك القناة والعدوان الثلاثى ، وهزيمة يونيو شهدوا معها كنوب الأورنس وهى تحترق ، واللنوشة وهى تغرق بالاطفال ، وبعضها يخترق

البحيرة محملة بالمهجرين دون طعام والهاربين من الامأوى .
عاشوا معها لحظة هبوط الطوربيد من أعلى نقطة فى السماء مخترقًا الاسقف الخشبية لبيوتهم الفقيرة ،وهى تحكى كيف كانت ترى بورسعيد فى حلوان حين خرجت مطالبة باعادة محاكمة قادة الطيران .
كنت أجلس مختفيا وراء صفحات كتاب قديم عن الحرب الكونية الثانيه،اسمع هتافها الذى لا تبوح به وأرنو إلى مقلتيها وهما تلتمعان بعشق لا عهد لى به.كأنى بدأت ادرك كيف يحب الانسان مدينه ويبحث عنها فى متاهة اللامعنى بين تضاعيف هزيمة الوطن أسمع تمتماتها صلوات للمدينة.تنسرب بين جوانح القلب نشيداً أزلياً. قالت ذات مره وهى تدنو من النافذه الوحيدة المفتوحة على غسيل الجيران،المترنح على أحبالهم المجدوله من ضفائر الصغيرات .
– لن اترك هذه المدينة إلا إلى القبر .
أقول :
– بعد مدن كثيرة
تقاطعنى فزعة :
– يبدو أنها الأخيرة ، الاخيرة
اروح مع سحر تناغم الكلام في حلقها الى آخر الآماد يأخذنى الحب الى ذراه التى لا ترتقى .

(20)

صوتها عصفور وحيد تائه فى غابة شاسعة :
– أول مره قال لى أنا من بورسعيد ...
أدركت أنها تحدثنى عن الحبيب المفتقد .

- فى المرة التى جلسنا فيها حول نافورة الكلية نغتسل بالمطر الهاطل من سماء تظلنامثل حمامتين علا ريشهما الزغب .
- إلى أين ذهبتما ؟
- إلى كل الاماكن ،كانت القاهره كلها بيتنا . فى كل غرفة صديقة ، فى كل شقة صديق. كل المقاهى كانت تعرفنا، عمالها يجلسون مع الزبائن بعد تقديم الطلبات واثناءها، الكل فى حوار لذيذ له سخونة الفطيرة الطازجة فى ليالى الجوع الباردة .
- وأبيك ؟
- لماذا تخطر على البال دائما سيرة الأب ؟
- المعاناه
- أبى كما رفض أمى من قبل رفضنى
- عبد الحميد ؟
- تستحق لقب مدرس عن جدارة .
- خرجنا عن الموضوع
- بل نحن فى صلب الموضوع تماما عبد الحميد معلم هاو، وانت محترف لا تجيد التعليم .
- انا فى الواقع لا أجيد أشياء كثيرة وعبد الحميد كيف خرج بك من هذا الزخم الى علاقة الزواج ؟
- لم يكن لنا بديل امام هؤلاء إلا الفراش المقدس
- مقدس لمن ؟
- للجميع .
- جميع من ؟
- لا أدرى تماما .
صمتت قليلا تنهدت :
- لم، تكن العلاقة لتستمر بأى حال بدون هذه الورقة .

- والرفاق ؟
- كلهم فعلوا ما فعلنا
- وأبوك ؟
- رفض التوقيع عنى بالوكالة .
- أعطاكم صك الحرية
- الحرية لا تصك
- وكانت يدا عبد الحميد مبتورتين ؟
- ومغلولتين

لا تزال الدموع تطفر من عينيها مثل حبات اللؤلؤ التى كانت تقذفها الريح فى وجهيهما وهما جالسان على جانب نافورة الكلية ينظران الى البعيد حيث لا يعرف البصر نهاية لأى شىء.

(21)

بورسعيد ليست بعيده عن حلوان الا بعد المسافة ما بين البنصر والوسطى. تقول امتثال مأخوذة بالنشوة :

- بورسعيد الآن ساكنه .

تردف :

- حلوان هى بؤرة الاشتعال الآن ، تغترف بيدها غرفة من النافورة :

- فى حلوان الآن تتغير محاكمات قاده الطيران .

يلتفت عبد الحميد ناحية شجرة قديمة امام مبنى ادارة الجامعة :

- ترين هذه الشجرة العتيقة ؟
- أراها مجرد شجرة قديمة،وربما انتهى عمرها الافتراضى .
- هذه الشجرة لا زال فى عمرها الكثير طالما أن حولها نباتات صغيره تمدها بالحياة .

- ماذا عن بورسعيد ؟
- مات اخى على شبانه فى الرسوة ولم نعثر على جثته
يلمح عبد الحميد وقواقاً يحط على ذؤابة الشجرة القديمة ، ربما جاء من اقصى الشمال بحثًا عن شعاع شمس دفىء .
- كان متطوعًا فى كتائب الطلبة عند الغزو الثلاثى .
- اين الرسوة ؟ أريد أن أراها .
- سترينها عندما تعود الطيور المهاجرة إلى أوكارها .
يشير عبد الحميد الى الرفاق المتحلقين بالاقتراب.يدنون رؤوسهم خاشعين ، منصتين الى الرفيق يبكى . لدموعه لون مياه النافورة المتدفقة الى أعلى النازله الى الداخل، فى حنين أبدى .
- أخبرونا أنه قادم ولم نره بعد تهتف امتثال رابتة بيدها المرتعشة على خد عبد الحميد المشتعل :
- لعله فى الطريق
تمد إلى أحد الرفاق يدها . تتكئ عليه قائمة . تقول وهى تتجة بوجهها نحو بوابة الجامعة المكتظة بعساكر الحرس .
- لعله فى الطريق الينا ... لعله فى الطريق .

(22)

الليلة كانت البروفة الجنرال . تدافعنا الى المنصة كأننا نمضى الى عرس . فى اعلى نقطة من المنصة كان الاستاذ عباس مخرج النص واقفا يشير الى الكشافات ينادى على شخص داخل غرفة التشغيل فى نهاية الساحة الفارغة، وقد اخذت في الامتلاء حين صعدنا اليها تباعا :
عملت تست الالوان على الإضاءه يا باشمهندس ؟
لا يرد احد تشتعل الكشافات باللون الأخضر الناصع،ثم الأبيض

ثم الرمادى ثم تنجلى عن لون أحمر فاقع يغمر المنصه ، على الاوجة والايدى . الملابس كلها انغمست فى الأحمر، وكذلك العيون - جاهزين يا رجاله ؟

أصيح :

- السكريت يا أستاذ

يشخط :

- ما هو معاك من امبارح

أقول مؤكدا :

- سلمته قبل ما امشى

يلوح بيده فى وجه لا احد :

- شوفة مع مين ويسرعه يرنو الى عبد الحميد الواقف تحت الكشاف يستحم فى شلال من الأحمر صار الأحمر داكنا .

- جاهز يا عبد الحميد ؟

- ايوه يا زعيم

على أحد الكراسى المتهالكة وضع عبدالحميد المسجل . من جيب نصف معطفه اخرج قلماً ثبته بين طرفى ذراعيه ضغط به دفعه واحدة على مفتاح المسجل

- انا جاهز

كنت فى هذه اللحظة تماما قد عثرت على السكريت ناولنى اياه خلف قبل ان ينحنى يجرب الارض التى ينحنى عليها الان واضعا يدية وركبتيه والأغا يتجة نحو ظهر خلف كأنه صار المكان الوحيد الاليف لديه فى هذا العالم .

- اشتغل

ينطلق صوت الأستاذ. تنحسر الأضواء كاشفة عن سواد عميق

- النور انطفى
- ازاى ده يحصل ؟
الاصوات كلها تعلو
- الشمع فين ؟ فين الشمع ؟ بسرعه يا ناس
صوت عبد الحميد يقطع الصمت مدويا :
- المسجل فيه حجارة
- اشتغل
يصيح الاستاذ،إذ يخرج الشمع مشتعلا من حجرة التشغيل موكب عرس حقيقى . يشتعل الجميع . تضج المنصه تحت ضربات الاقدام
- اشتغلوا مش عايزين نضيع وقت .
أنتبه الى الجميع ، تتأرجح بقع الضوء الشمعية على وجوههم تتأرجح خطوط من الحماس والاصرار على ان يتم العرض غدا كان الغد هو الرابع والعشرين من ديسمبر .
صوت الاستاذ ما يزال يدوى لهب الشمع يزداد اشتعالا .
- ادخل يا خلف
على يديه وركبته خلف يزحف داخلا الى قلب المنصه ، أذ يدنو منى شيئا ما ، اقترب منه ، هامسا :
انا برضه بنى آدم من دم ولحم يا جناب الأغا

(23)

يدور خلف على ركبتيه . يقطع المنصه فى شبه دائرة ينتفض جسده تحت ثقل الأغا يضرب الأغا الهواء بسوط وهمى ينزل به كاويا جسد خلف المضطرب فى حركات متواترة :
- شى ولد .. شى فلاح

يتلفت الأغا يمينا ويسارا يرفع يده مستدرا تصفيق المتفرجين
- تمشي كويس ولد .. ما فيش كرباج .
يزداد جسم خلف ارتعاشاً تحت وطأة الجثة المتورمة
- ما تخفش ولد .. حظرتنا يأكلك تبن وبرسيم أخضر .
فجأة يتوقف خلف تتوقف أنفاس الجميع يخاطب الأغا شخصا وهميا :
- حظرتك رافض جميع الطلبات . مفهوم رياض باشا .
يضرب بزخرة قدمة جانب خلف
- مرفوضه كلها رياض باشا من غير ما اشوف .. دول فلاحين يعني عبيد عند الخديوى والشراكسة ، عبيد للأغوات والباشوات والباكوات .. مفهوم رياض باشا ؟
يعود خلف الى شبه الدائرة ارتعاشا . يكف جسده عن الحركة يصيح .
- يا عرابى يا زعيم . احنا جايين لك
يقوم خلف مستويا . ملقيا بالأغا . كأنما حررت جسده قوة سحرية لا يقدر على ردها . يصيح حتى ترد القاعه صوته من كل جنباتها الاربع المرئية تظل ترده حتى يأتى الصدى من جوانب المسرح التى يراها خلف ولا نراها
ينادى فى كل شىء حولنا ولا، وحولنا ، شىء نراه،ولا يرانا شىء يرانا ولا نراه .
- حطموا سجن الطغاه .. حطموا سجن الطغاه .. حطموا .. حط
ينزل جاثيا على ركبته ، رافعا الى السماء يدين مستويتين ، لا تزالان ثابتتان عند انتهاء الهتاف .

وقف عندك ولا حركة . كله يسلم نفسه .

صاح احد حملة الطبنجات ذوى الأردية السوداء الذين امتلأت بهم قاعة المسرح مشيرا نحو احمد خلف الذى خرج يعدو نحو باب الكواليس .

- هات ابن الكلب اللى بيجرى هناك ده .

الملابس الميرى والكابات نشرت على القاعه لوناً أسود من الليل الغطيس يجرى فيها جريان السيل ، السلم الخلفى الذى اندفع منه البعض هربا تأتى منه بقعة ضوء فقيرة .

موظفو الثقافة فى مؤخرة القاعه اصطفوا خلف رجل منهم، يشير الى الكابات، والطواقى الصوف ذات القرون نحو عبد الحميد شبانه زاعقًا :

- هو ده زعيمهم يا باشا

وعبد الحميد ينادى باحدى يديه المتبورتين على الرفاق أن يقبلوا وباليد الاخرى يشير الى الفرقة الموسيقية أن تستعد.ظهره إلي جناح المتفرجين ووجهه الى رئيس الفرقة . وصوته ينادى الرفاق متلهفا :

- امال فين امتثال ؟

يهتف برئيس الفرقة :

- ياللا بلادى بلادى

فى الخارج ذوى الجلابيب، والمعاطف الصفراء،والطاقيات الصوف ذات القرون يملأون الطرق المتعرجة حول القصر .

العربات الزرقاء تحيل الساحات المحيطة إلى ميدان معركة صوت السارنيات يخترق الستائر الرمادية للغمام الذى تكثف به ليل المدينه ، فى ذكرى انتصارها،معلنا عن بداية الموقعه تبحث

العيون عن مخرج النص ،تبحث، تعبت، العيون ،ولم يعثر له
على أثر ...!
...

الجزء الثاني

أسطورة اليقين

الرئيس يقول فى كلمة الى شعب بورسعيد
- قرار العبور كان نابعا من الارادة المصرية
- قررنا طرد الخبراء السوفيت قبل المعركة حتى لا يؤثر احد على إرادتنا.
السوفيت أخفوا عن عبد الناصر توقيت الضربة الجوية الاسرائيلية عام ٦٧
الرئيس السادات يوجة كلمة الى شعب بورسعيد
الرئيس يقول لا مكان للشيوعية فى مصر
فى كلمة الى شعب بورسعيد فى اطار احتفالات المدينه باعياد النصر قال الرئيس ...
نحن نبنى بالعلم والايمان ولا مكان للشيوعيين ولا اصحاب قميص عثمان . سيادة القانون والشرعية الدستورية هما اطار الحكم بعد الخامس عشر من مايو
بمناسبة احتفالات شعب بورسعيد بالنصر القومى وجه الرئيس ...
احباط محاولة لاثارة الشغب اثناء احتفالات اعياد النصر ببورسعيد
احبطت اجهزة الامن فى بورسعيد امس محاوله قامت بها عناصر شيوعيه لاثارة ...
الشيوعيون يحاولون اثارة الشغب اثناء احتفالات بورسعيد بالعيد القومى

حاولت عناصر من الشوعيين اثارة الشغب خلال احتفالات عيد

النصر بورسعيد

الكشف عن تنظيم شيوعى في بورسعيد

اكتشفت اجهزة الامن فى بورسعيد مؤامرة دبرتها عناصر من

الشيوعيين لاثاره الجماهير ضد النظام وقد تم اعتقال ...

اعتقال اعضاء تنظيم شيوعى جديد فى بورسعيد

اعتقلت اجهزة المباحث امن الدولة امس اعضاء خلية ...

(1)

وجهة كليلة،مجدبة بتنا فيها جياعا، لاينبىء عن شئ ، كوجه فأر يكمن فى ركن مظلم من حجرة مليئة بالنفايات.أقول له السلام عليكم يا عم ثروت لا يرد ، السلام عنده جريمة ربما تصل عقوبتها الى المؤ بد، وضعو ه عند باب البيت، أمروه ألا يتحرك قبل ان يأتيهم بعينات الهواء الذى نتنفسه. السلام قد يعنى فصله من الخدمة،تحويله الى الأرصفة الممتلئة أصلاً بالمسالمين السلام الوحيد الذى يريده من أوقفوا ثروت على باب بيتنا هو سلام الصامتين . كلما قلت له سلام قطب وجهه ، وتبعنى بنظرته حتى ملابسى الداخليه أضحك.صرت أضحك من ثروت إدمانا حتى أننى كلما لقيته واقفا على تلك الناصية التى لا تسع بالكاد الا جسده المنتفخ.يحصى الداخل والخارج قلت له ضاحكا سلام يا عم ثروت . ترمقنى الكآبة من عينيه الضيقتين يخرج من جيب معطفة الاصفر نوته صفراء يدون شيئا كأنه عسكرى مرور يحصى أرقام العربات التى تسير فى الممنوع صارت نظرة عم ثروت الصفراء ، معطفة الأصفر،ونوتته الصفراء من مفردات الحياه التى استجدت فى تلك الحارة المنعطفة من

شارع عبادى لا تستطيع الحياة ان تنفك من إسارها ......
لم يمض وقت طويل حتى صار وجه عم ثروت اليفا لنا مثل -
كما قال أحد أصدقاؤنا الشعراء لا أذكر اسمه الفه الموت .

قال
يا بحر ايش نورك
قال
النو فوقى
والسحاب
والمطر
......
......
......
قال
ياطير إيش يقهرك
قال
بقالى سنين باغنى
مالقيت حدا يسمعنى
قال
يا زتون وايش صفرك
قال
بقالى سنين
على غصانى
مالقيت جدا يروينى
قال
يا دخان وايش طيرك
قال
بقالى سنين بلون

زراق
بياض
سواد
مالقيت حدا يلمسنى
قال
يافرعون وإيش فرعنك
قال
بقالى سنين باتفرعن
ما لقيت حدا
ردنى
زعق واحد :
هاتوه
انا قلت
ليه ؟
قال
قالق منام الناس

2

على مقهى دعدور اخذت تلفحنا ريح آتيه من الجهة الشرقية لرأس البر ، حيث كانت تسفح آذاننا تحذيرات قائد القاعده البحرية ألا يظهر أحد منا فوق الارض بعد أخر ضوء ، وأن الزوارق أصبحت على مسافة مائة ميل فقط من القاعده وأنناأصبحنا فى مرمى نيران العدو ، أننا ولم يكن سوانا والنادل الذى اخذ يقلب لنا الشاى فى تكاسل واضح أملاه عليه فى ظننا بعد المكان وخلاؤه وغرابة الوجهين عبد الحميد يفرد امامه صحيفة الأهرام ، مشيراً الى الصورة الأمامية بنصف يده اليمنى يقول ببقايا يا صوت أكل نصفه الآخر برد خريفى

- هذا الرجل سيأكل ما بقى لنا من أمل

- الثورة ؟

- نعم فهو صاحب مشروع انفتاحي على امريكا، لا يعلم احد مداه .

- لا محل عندى لليأس ما دمنا محافظين على الزخم الذى انفعلت به الحركة الجديدة .

- أى حركة جديدة ؟ وأى زخم ؟ وهؤلاء المتسيدون للساحة يدعون بأن علينا مساعدة النظام ضد الأجنحة المتشددة حتى ينجز باقى مهامه الوطنيه .

حين لمست أصابعى (المتيبسة)كوب الشاى ، اكتشفت أنه صار باردا مثل تلك النسمة الصباحية الأتية من ناحية الخندق المتعرج المتجة شرقا نحو الجميل من مدينة عزبة البرج . كانت الشظايا تتناثر مثل بذور الرمان ،لونها دمنا ،جنودا فى حرس السواحل والحدود ، والحدود صارت مفتوحة نحو هدنه هى بداية انسحابنا التدريجى من الأراضى المحررة نحو خيمة الكيلو 101 أفقت على صوت عبد الحميد ينادى :

- تعالى خد حسابك
وهو يدفع بالجريدة تحت ابطه ، زاعقا فى وجة الريح التى تلفح برودتها مآقى العيون :
- القاعده ما بقلهاش لزمة .

3

يقول عبد الحميد
- سيبك من سيد درويش دلوقت وجهز لنا الشاي يا خلف .
اذنه اليسرى ، خده ، عيناه ، رأسه ، جسده ، روحه ، الكبيره والصغيره فيه والعود .. ذرات تلتف بعضها حول بعض ويده لا تكف عن اللعب على الاوتار تجرب .
اهو دا اللى صار وادى اللى كان
- يا عينى عليك
اهتف بكل ما اعرف من حنين . امتثال تترك أوراقها جانبا والقلم الذى لم يفارق يدها منذ الظهيره
- ها اجهز لكو الشاى خليك انت يا احمد .
مالكش حق تلوم عليه
أهتف بكل عشقى لسيد البحر، وكل عشقى لأحمد
- ياروحى عليك .. أعد والنبى
ينسج الكلام مع الاسى عزفا سمفونيا تنساب فيه الامانى حلما واحداً لا ينتهى ولم يبتديء ابتداء
وخير بلدنا ماهوش فى ايدنا
وتلوم علينا ازاى يا سيدنا
وهى تضع البراد فوق السبرتاية ، مقربة عود الثقاب من شريط الاشتعال امتثال تتمتم .صوتها يتسلسل عذبا مثل انبثاق الشمبانيا النقية من ينبوع الحياه .

قولى عن اشياء تفيدنا
وبعدها ابقى لوم عليا
يندفع الباب مفتوحا الى داخل الغرفة. يهب عبد الحميد يتلقى كيس العشاء من زهير عبد القادر الذى يقف على باب العتبه ضاحكا : مساء الخير عم ، ثروت بيسلم عليكم .

4

النشرة التى يحملها عبد الحميد تحت إبطة داخلا من زاوية منفرجة دون ان يفتح الباب ، أعرفها كما أعرف أصابعى إذ يلقى بها عبد الحميد إلى المنضدة التى نتناول عليها كل شىء من اقراص الطعمية الصباحية والمسائية ، واكواب الشاى الفاحم واوراقنا التى تتعرج عليها الخطوط ترسم حلم قديم بإعادة اكتشاف العالم . تنفرج شفتيه عن ابتسامه عريضة لم أر على وجهه مثلها إلا فى لحظات نادره يكون فيها مهيأ لإلقاء احدى القنابل شديدة الانفجار .

– أبشر يا عم زهير آخر نسخه من تنوير لقيتها عند عم امين بتاع شارع كسرى .

متهيئون لسماع بقية الاخبار التى يحملها عبد الحميد داخل معطفه الذى اشتراه من الباله منذ يومين ننصت فاغرين

– المسكين عم امين لما سألته عنها وشه اصفر .. افتكرنى مخبر حلفلى ستين يمين أنه ما عنده غير النسخه المنسيه دى .

زهير يعلو صوته فجأة كأنه قبض على المفتاح الذهبى لمعضلة تؤرقة .

– خلصت من السوق يعنى ؟

عبد الحميد يلاحقة قبل أن يغير وجهة تركيزه لا يزال على وجه زهير علامة استفهام بارزة فى عيوننا مثل ضوء الشمس المنعكس على عدسه المرآه

- اتصا ..... درت

وزهير الذى بدا له ولنا أنه فهم كل شيء سلفا يبادر

- إيوه ، بس ليه ؟

وعبد الحميد مؤكدا على الأحرف كعادته حين يشعر أنه يضيف شيئا محوريا إلى موضوع الحديث

- العنوان يا حبيبى بيقول إن البلد فى ضلمه ونظام الحكم ...

تقطع ضحكة عبد الحميد الظلام الفعلى الذى لف الغرفة بعباءة من السخرية فاقعه اللون ، تسلب أرواحنا ما تحنو عليه من أمل .. تكشف عنه غطاءة فجأة .. يباغته البرد بأنيابه قبل ان يسيل دم الحلم من صدورنا اهتف :

- أبشروا بالأمور إذا وصلت الى قمتها

لا أجد ردا أنكفأ على صمتي ، ميمما وجهى نحو باب الغرفة الذى لا يزال منفرجا .

5

قالت امتثال

- ما أحلي الفصول الأربعه .

مبتسمة عيناها ، تنظر فى شغف لم اعهده الا فيها ، فى اتجاه البيك آب مشيره الى الاسطوانه الدائرة دورات تتهادى فيها نسمات الغناء الوترى

- الشتا يرعبنى شوق ، والصيف يرعبنى حنين للضل ، والربيع يرعبنى حب .. أما الخريف يرعبنى خوف . كلامها راح سكرت

به
منتشيا هتفت
- يا ... هـ
قد إيه إحساسك بالحياه عظيم ترد بحسم
- عارف .. أحلى حاجة فى الدنيا الأشياء البسيطة قوى اللى تحسها بدون قصد .
صوت عبد الحميد يقطع عليها المناجاه ، يعيدنا الى الارض .
- بطلوا شعر بقي وقولولنا حاتعلموا ايه بكره فى موضوع الانتخابات ؟

6

من حلق المسجد الملاصق لسرادق الانتخابات الذى احتل الاركان الأربع من عبادى كانوا يخرجون تباعا يتوسطهم عبد العاطى بصله مرشح الحكومة ، يتحلقة ذوو القمصان البيضاء والسراويل واللحى البارزة يصيحون :
الله اكبر .. انتخبوا رجل المبادىء .
المصاحف بأيديهم مشرعه وحلوقهم تملأ صحن المسجد هتافا هو اقرب الى قرع الاجراس ، لا يبين منه إلا مقطع بارز ظل يتردد حتى دخلوا جميعا الى السرادق الذى كنا منزوين بركن منه
المؤمن عبد العاطى .. المؤمن عبد العاطى ..
حبيبكم المؤمن عبد العاطى .
ينجح بالتزكية حينما تصدر الحكومة امر للجميع بالتنحى وعم شعبان المكوجى لم يعد من رأس البر خشية أن يترك عشة المهجر إلى الطريق العام. عم شعبان مؤجر خصوصى للبدل التى يحضر بها عبد العاطى مراسم الأنتخابات وحين أقنعوا عم شعبان أخيرا بالعودة وأمتعوه وعدا بشقة فى حى الكويت لم

ينقطع العهد بينه وبين عبد العاطى بصله المرشح الحكومى بدائرة عبادى يرتدى البدلة المؤجرة من عند شعبان ، يعتلى بصلة المنصه وصوت اسماعيل الندوى ورجاله فى سراويلهم وقمصانهم البيضاء صليل صدىء لأجراس أهلكها القدم .
إنتخبوا رجل القرآن عبد العاطى
بينهم السيد السنانى ، تعلو رأسه عمامة ليست كعماماتهم. عمامة السنانى رباط شاش مبرقش ببقع الدم . يقدم السنانى يده محييا ينظر إليه بصله بطرف عينيه مزدريا . يهتف السنانى

- اتظلمت يابيه .. عايز حقى يا بيه
يأخذونه بعيدا . يقاوم أذرعتهم وأصواتهم التى تعلو
خلاص يا عم الحاج حانجيبلك حقك توكل على الله
شرع عم السيد قبضته الى السماء.
عليك العوض يا رب حسبنا الله ونعم الوكيل .

7

داخل الصوان لو ترش الملح ما يتبدر. وتحت المنصه مباشرة رقد خلف وعبد الحميد وامتثال على باب السرادق يترقبان وصول مرشح الحكومة للإنتخابات الأولى منذ التهجير يدخل عبد العاطى بصله محاطا بخيمة من القمصان البيضاء واللحى السوداء ، والعمائم ذوات القرنين ، وهتاف لا ينقطع الا ليتبعه هتاف اخر من مكان مختلف .
الله اكبر .. عبد العاطى رجل الأيمان .. إنتخبوا رجل القرآن .
ولوحة فى صدر السرادق تتحدى العيون :
جماعه أنصار السنه المحمدية تؤيد الرجل المؤمن عبد العاطى

بصله تبحث عيناى عن عبد الحميد وامتثال طويلا . أنادى
سبحان العاطى الوهاب يا زملاء انتو فين ؟
يرفع عبد الحميد الجزء الباقى من ذراعه مشيرا
- يحى أهو
تبحث امتثال فى الزحام ولعينى امتثال سهمان لا يخطئان .
- أمال فين خلف ؟
فجأة يقف خلف فى وجة عبد العاطى بصله ليس بينهما حجاب
يمد يده ، يناوله هذا الميكروفون دون أدنى مقاومة ، ينطلق
صوت خلف هادرا .
- عايزين سيادتك تكلمنا عن البرنامج الانتخابى بتاعك .
يخطف الميكرفون من يد خلف . يشير عبد العاطى بصله الى
بعيد بصوت مشروخ كأنه حكه مفك على لوح حديد صدئ ،
يزعق :
- انا اتكلمت مع الشيوعيين فى الموضوع ده خلاص
يحمل أحمد خلف الى ظهر السرادق ، لا يعود ...

8

طرق الباب . طلب سلماً إكتفى بطلب كرسى حين لم اجد له
سلما .
إعتلى الجدار واصلا إلى عداد الأناره صرخت :
مالك بالعداد يا شيخ ؟
ابتسم ابتسامه أنتصار قال بلهجة حازمة
- حاقطع التيار
ترجل عن الكرسى . لمحت فى يده كوبس النور .
شهقت
- يا عم دول ثلاثة جنيه عمى

دون ان يلتفت الى قال :
حد حاشك .. روح ادفعهم
استدرك
- وما تنساش تدفع عليهم خمسة جنيه غرامة تأخير .
فجأة كمن وجد روشته علاج ظن ان فيها شفائى :
- انا فى انتظارك بس انت قول فين اسماعيل الندوى والف مين يدلك .
لاول وهله ادركت انى لن اصل الى أى مدخل إلى قلب هذا الرجل ، ندمت حتى على إعطائى هذا الكرسى اليه دون مناقشة ليقف إليه ليصل الى التيار ويفصله عنى. وقلت فى نفسى كان عليه ان يأتى بشىء يقف عليه اذا اراد أن يحرمنى من ضوء اللمبه الوحيده التى تضىء هذا المكان الأقرب الى الخندق منه إلى البيت أردت أن أرد لنفسى بعض الأعتبار
- على كل حال أهى البلد بتنام من المغرب .. انت ناسى اننا فى حرب والا ايه ؟
- لامش ناسى ، واحتمال البلد تتهجر النهارده قبل بكره .
ناولنى الكرسى وعليه بصمات فردتى حذاء متسختين بطين العالم .
- لما نرجع يبقى يحلها الحلال
أخذت أتحسس محتويات الغرفة العارية فى برودة الخريف الدامس من تلك الليله من ليالى تشرين .
تحمل الريح القادمة من البحر صوت رجال الدفاع المدنى: طفوا النووووور
ندت منى ضحكة وراودتنى فكرة بأن لو كانت حكومة شعبية

للبلد لأضاءت كل الأشياء المعتمة ثم نسيت الأمر كله حين هزت جنبات المدينة أصوات القذائف .

9

كأن امتثال على نفس الموعد هناك حيث ذاك المقهى القديم بشارع أبى الحسن ابتدرت زهير وهى ترقب حركة رجلية فوق مدخل الغرفة . تداخلهماالإيقاعى يذكرها بتلك القصيده الفيتنامية التى فرغت لتوها من ترجمتها عن الفرنسية .

– ما وراءك يا صاح هات ما عندك

ضاحكا يقول

– مش حاتصدقى النهارده كنت مع الريس حمام .

وهى تمد اصابع كفها اليمنى تبسطها على كتفه اليسرى

– الريس حمام الصهبجى ؟

قال بحزن مباغت

– كان !

رنت الى وجهه طويلاً

– زى كل حاجة جميلة !

مغيره مسار الحزن تناوله ورقة خضراء تلمع بالخطوط المترادفة

– خد اقرا النص ده وقول لى رايك

تناول زهير نصها تنداح عن وجهه آخر التعبيرات الحزينه قبل ان يستقر على ابتسامه كنور الفجر الطالع فى ليله ضبابية

– خلف لسه ماظهرش ؟

تنتبه امتثال الى أن زهير لا يزال واقفا فى مدخل الغرفة

– عبد الحميد بيدور عليه

ناولته احد كرسين احتوتهما الغرفة غير السرير والدولاب

السوسته والطاوله .
- اما روح احضر لك كوباية شاى عبال ما تقرى النص
اشار بيده الى رأسه التى بدا ان الصلع قد اقام منه فى مساحة كاملة
لسه ما اتعشتشى
وهى ترج السبرتاية يمينا ويسارا تقول
- خلى بالك .. الكرسى فيه رجل مهزوزة

10

انفجر عرق المدينة ناثرا دمه على الارصفة الفقيره حيث كان المستبقون يتهيأون لسماع مدفع الافطار يبتاعون خبزهم فى الفرن الوحيد بشارع الحميدى .. انفجرت اللحظة عن صواريخ الألف رطل وأشلاء تغطى أطراف المدينة وقلبها.. دم منسكب صفارات لا ينقطع زعيقها الخبز دم لم يجد مهربا إلا من كان منذ الصباح قابعا فى أحد ملاجىء الدفاع المدنى .. وانزوى الندوى بركن داخل شقة كانت مكتبا إداريا لجماعه أنصار السنه حولها إسماعيل الى لوكاندة لا تتسع الا لنزيل واحد هوإسماعيل ذاته يحضر حساء العدس قبيل الافطار الذى غسلت فيه الشمس المدينه فى حمام الغروب الدموى .. الفكرة التى جالت بذهن اسماعيل وقتها كانت موعده فى الصباح مع إجازه الاستبقاء حيث يعود إلى دمياط بأجره الشهرى مضافا اليه بدلات الطوارىء ...

(11)

اخذت العربه تنزلق على اسفلت الشارع على صوت الريس حمام يهدر
مع السلامة يا مهاجرين الريس حمام بصوته المختنق فى غبار

الحزن الذى يتكدس فى مسام الحلق يهتف
نشوفكوا يامافى الفلاحين ما تقولوا يا ناس .. مال سهم الله نزل عليكم ؟
الجميع ينظرون إليه والأطفال الذين حملتهم الأمهات ملتفين فى بطانيات صينيه هى ما تبقى فى هذه السياره الحكومية من غطاء لهذه الأيام البارده من كانون يبدأ التصاعد اللحنى فى أشداقهم المنشرخة من شدة العطش
نشوفكوا ياما
فى الفلاحين
ثلاثة ايام انقطعت فيها المياه عن المدينة عجزت فيها الامهات ان يرضعن الاطفال . تركت فى الأنفس المشوقة إلى الخروج بضع ذرات أمل أن تنتهى الرحلة إلى إحدى القرى المجهولة فى بحرى حيث كان الوعد بإن الحكومة سترحل الافواج الاولى
مع السلامة
يا مهاجر ...
تتدلى رأسه على مشنقة من التأمل الصامت اخيرا ... واضعا يديه فى حجره تتجه عين الريس حمام الى البحر رغما عنه . يخبره البحر ان العربه متجهة الى مدينه دمياط يفرح الريس حمام فرحا لم يخطر له على قلب يود لو يعود تاركا هؤلاء المحملون فى العربة المهتزة يهرع الى البحر نصف عار يشده الموج المتدافع نحو الأفق الضارب فى السمار والسماء الملونه بلون السحاب تهتف به أن يعيد الأغنيه ينطلق من وسط العربه فجأة صوت السائق
مالكم يا جماعه المقدر حايكون

يفيق الريس حمام على أصواتهم
مع السلامة
يا مهاجرين
مصفقا بكلتا يديه على سيف الزجاج القريب هنيهه يأخذ الجميع يصفقون
وما لبثت العربة ان غرقت فى ضحك له صوت انهمار المطر .

12

ميممين شطر قسم شرطة حى العرب ...
اقدم رجلا والاخرى متسمرة تأبى الحركة . ووالدى مسرعا امامى اللخطى يتلفت بين الحين والحين .. يتأكد اننى لا ازال احرك قدماى

- مد ياابنى

اقول بغضب

- يابا هو القسم حايقفل ؟

يقول مبتسما

– يابنى دا دين كلنا منتظرين سداده

يعلو صوتى

– ما تخزناش يابا ..كده كده حانوصل.. على مرمى حجر منا قسم العرب من حوله ودأخله أرى زملاء الدراسة .. وبينهم وقف رجل ينطق ذراعه الأيمن برتبته باشجاويش بأربع سبعات قماش عريضة سوداء يسجل اسماء الزملاء بكل ذراعه حريصا على تحريك الجزء العلوى المكلل بالسبعات السوداء كلما تحرك القلم من يده على الورقة العريضة الصفراء أشق لنفسى ثقبا بينهم ينفذ منه صوتى إلى أذن الباشجاويش

يحى مروان يا حضرة الصول
أتذكر أنى لم أر وجه أبى طويلا أبحث عنه أعثر عليه جالسا فى ركن بعيد من الرصيف المواجة للقسم يمسح مآقيه بباطن كفيه على عادة أبى حين يغلبه البكاء .

13

تلك الأمسية من اذار لم تكن كسابق الأمسيات من الزمن الذى عشنا نجتر لزوجته الليلة تلو الليلة ونحن علي ضفاف بحيرة قارون نتدرب على عبور المانع المائى تلك الليلة تندت بطراوة ليل ربيعى وطراوة الحلم بالإجازه الطويلة بعد انتهاء المشروع .. حين دخلنا الى الملاجىء وصيحة الباشجاويش محمد تسبقنا إلى قاعها

استعد يا عسكرى انت وهوه للجمع بالشدة الثقيلة .
والشدة الثقيلة تعنى إن التدريب بالذخيره .. وأننا سنزحف على البطون وأننا سنعبر الأسلاك الشائكة جميعا وصولا الى البحيرة المنتظرة .أوامر قائد الكتيبة بالاجازة والعيد يقترب وابراهيم الزينى يشبك أحد أحزمة الجرابندية على كتفه اليسرى محاولا إدخال اليمنى فى الحزام الضيق دون جدوى يصيح :
– حقه لو الاجازه عشر قيام زى ما بيقولوا ؟
– مافيش دخنه من غير نار يا عم إبراهيم
أنتهز وأنا أنظر بعيدا بعيداً جداً.
يقول : ربنا يعيدها علي خير .
وأنا أخشى على فرحتي بالإجازه أن تتبدد
– يا عم إبراهيم افتكرلنا فال حلو
أدرك أن إبراهيم الزينى لا يقتنع بمثل هذه السهوله منذ ان جاء

إلى كتيبتنا ملحقا من سرية المهندسين العسكرين وهو فى ركن من الملجأ منكبا على كتاب او مجلة بالالمانيه التى أجادها حين كان أبوه يعمل مهندسا فى احد مصانع السيارات وتربى هو مع الاقران لا يتحدث إلا الإلمانية التى سرعان ما جرت على لسانه جريان اللعاب

يقول ابراهيم

-الليلا دى حاسس قلبى مقبوض

أنفعل بخسران الحلم الذى ظللت خمس وأربعين يوما وليله فى صحراء الفيوم أحنو عليه أهدهده أخشى أن يصير كوما من ترابها

- ما انت من يوم ما جيت قلبك مقبوض يا ابراهيم .

ولقلب ابراهيم قصة لم يكشف عنها الستر إلا عند أذنى وحبيبته البورسعيديه هاجرت إلى مكان لا يعلم غير الله أين منذ سكنت أسرته قرية الشعراء بدمياط بعد حزيران النكسة صار يكره الإجازه إذ تذكره بالذباب الصيفى والطين الشتوى.

- وانت مالك بالإجازه يا إبراهيم يقول غاضبا

- يا أخى نفسى أقضى أجازه ربيع بعيد عن الشعرا دى.

ينادى الباشجاويش محمد عيد بلهجة خلت من كل احتمالات العفو .

- مكتب القائد يا عسكرى يحى

اقول متداركا خط العفو الاخير قبل التوائه فى طيات الغضب :

- جاضر يا حصول أنا جاهز

ملتفتا إلى إبراهيم الزينى محرضا أياه على الابتسام .

- دى باين عليها حاتيجى فوق دماغى .. أنا أدينى يا عم

محبوس عشان خاطرك .
ألمح فى عينى إبراهيم اعتذارا محاولا إحباط اعتذاره اقول :
- إسبقنى انت .. انا حاشوف الجدع ده وابقى أحصلك .

15

أمسى البحر محتضنا مدينة راس البر ناعسة إلا تلك البقعة من شـارع 77 يضىء بها الغناء عتمة المساء المنسرب نحو الخلاء المحيق بالبلدة الصغيره حتى آخر مساحات الغياب

حوش طرف الشال
يطرف عينى
والنبى يا جميل
حوش طرف الشال

مثل طائر ابو فصاده تترنح رقبة الريس حمام يميناً ويساراً وعلى رأسه يتدلى شال أبيض مغطيا جانبى وجهه لا يبين منه سوى عينى حمام الباسمتين كعينى طفل فرح بعيديته .. وشفتان تفتران عن فم خلا من الاسنان.. لم يبق فيه الا فرح يهتف بالمعانده

حوش طرف الشال
والنبى يا جميل

يهتز وسط حمام أرجوحه بستر خى فوقها كتفان مسحورين بالرقص المتواتر من أمامه زهير ذراعاه ممدودتان فى توازن مفعم بالمشاكسة تستحوذان علي الفراغ المتبقي من الحلبه التى يميل فيها جسد حمام الفاره تدوران تدوران تملآنه بالنشوه العارمة تستجلبان تصفيق الكبار ومراح الصغار وما هى إلا لحظة . وتنداح فى المكان رائحة البهجة . صارت مثل لحظة تنبثق من

حلم نورانى .. لا يذهب أحد من الحاضرين إلى نومه إلا وفى مخيلته منتظر فى سواد الليالى التى خلفتها ظروف البعاد المفاجىء عن الارض المستوحشة .

16

على بلد المحبوب

ودينى

وصوت المذياع يجلجل من خيمة القائد بصوت كورس رخيم لم أسمع مثله قبل هذا .. ولما أرادت الدمعه تطفر من عينى أطل الباشجاويش محمد عيد خارجا من الخيمة تسبق احدى رجلية الاخرى صوته يطغى على صوت الكورس الذى ملأ قلبى بالشجن

طا ل وجدى

والبعد كاوينى

يخترق أذنى صوته المشروخ زاعقا :

– للخلف در يا عسكرى

استدير بحركة آلية .. وجسدى يتخشب وأنا أعطى ظهرى للباشجاويس الزاعق .

– خمس أيام حبس قشلاق ... إنصراف

أكاد أولى شطر الملجأ إذ يدركنى الباشجاويش متعلقة يده بكوع الأوفرول الذى ادخرته للإجازه

قف :

واجهنى.. لمحت على وجهه مشروع ابتسامه .. لا أدرى مهربا من عينيه الثعلبتين يضع على كتفى يده .. أحس كتفي يسقط أقول مباغتا :

- مافيش داعى يا حصول الجزا خلاص حصل ... حايمك فى الجبل ده كمان خمس تيام .. مافيش مشاكل
- عليك نور .. اهو كدة
اقول منتهرا
- من فضلك بلاش تريقه
يفاجئنى بهدوء مثل زحف الأفعى .. يتغلغل فى ثنايا الكلام وإيماءة من كتفيه توحى بأنه يريد تغيير وجهه الحديث .
- اسمع يا عسكرى يحى .. أنت راجل مثقف وفوق كده متدين وأكيد لك فى فك الاعمال .
أى شيطان جاء بك حتى تفسد على متعه أنتظار الإجازه الميدانيه بحديثك الغث .. إلا أننى انطلقت أصيب الهدف إصابة مباشره
- هات من الآخر
كمن ذاب بحثا عن ضالة ثم وجدها
- لو جاوبتني على السؤال اعتبر الحبس كأن لم يكن
- أأمرنى يا حصول
يتحول صوته هامسا يتلفت ذات اليمين وذات الشمال
- لو حد قالك انه معمول له عمل وطلب الف جنيه عشان يجيبولك .. تعمل إيه ؟
أقول مبتسما وأنا أشعر تجاهه ببرود .
- يمكن لو حكيتلى الحكاية اقدر اجاوبك ع السؤال ؟
وحكى الباشجاويش محمد عيد الحكاية
- ما انتاش غريب ... انا بقالى حوالى سنه تعبان فى البيت حاول ان يتوقف .. يلتقط مع أنفاسه خطا جديدا .. يكمل به سرد الحكاية ... أبتدره مقاطعا :

- ايوه .. وبعدين
- مع مراتى .. يعنى .. انت فاهم
- هى الحكاية كده ؟
كأن لم يسمعنى البته
- ناس خدونى على شيخ فى دنجيه
- فين دنيجة دى ؟ فى فرنسا ؟
دون أن يبدو على وجهه أى بادرة أحساس من تعليقى .. كانت عيناه تنظران الطريق خارج حدود المعسكر .. خارج صحراء الفيوم بأكملها .. كأنه يرى كلماته تتحرك أمام عينيه .. تدب فيها حياة تغاير حياتنا التى كساها الاصفرار الكالح من أعلاها الى أسفلها .
- دنيجة دى بلدنا ... يا استاذ يحى .. مركز شربين دقهليه
أردت أن أجذب تلكما العينين ناحيتى .. دون جدوى.
اخيرا قلت :
- مركز شربين ... نعم
استفاق الباشجاويش محمد شيئا ما .. أدرك أننى وقفت عند بلدته.
- قاللى معمول لك عمل
يربت على كتفى .. أحس أننى صرت على أبواب قلبه
- والعمل ده فين يا حصول
انفجر مثل بركان ظل خامدا دهرا
- ما هو ده اللى عايزك تقولو لى
ألبست صوتى ثوب موده ليس فيها من الانفعال الشىء الكثير .. وإن كان حزن ما قد تسرب إلى رأسى دون مقاومة
- بس كده .. حاجة بسيطة قوى

انفرجت عيناه .. مد يديه يحتضننى ،، أفاق على صوت الجنود يدخلون الى ارض التدريب

- بسرعه ياعسكرى روح هات شدتك الثقيلة وحصلنى

صار الذراع الذى بينى وبينه أميالا من الانتظار .. كلانا يبحث فيها عن ضالة مختلفه .. صاح الباشجاويش

- انسى موضوع الحبس ده نهائى

وما زال صوت المذياع يجلجل من خيمة القائد

- زاد وجدى

- والبعد كاوينى

17

نسيت حقيبتها معلقة على نفس المشجب فى حجرة نومها تهرع إلى الشارع باحثة عن تاكسى ينقلها إلى محطة كوبرى الليمون مستشفى عبيد الميدانى مش حلوان.

كثيرا ما كان عبد الحميد يفضى لها ولا حوش كلية الآداب.

حين اندفعت داخله من سلم القطار الحربى كانت العيون التى امتلأت بها مداخل العربة على اتساعها تحتشد على جسدها سرعان ما نسيت ذلك كله وهى تردد فى همس :

دولا اولاد الفلاحين

دولا الفعلا

المصريين

- رايحين على عبيد يا دفعه ؟

- دون أن ينظر إلى مصدر الصوت.

- الحق أحنا رايحين وراجعين ..

قالت متوسلة :

- لو سمحت أنا مش فاهمه مش عارفه مش ...
يقول متسرعا :
- حيلك ، حيلك انتى ايه اللى ركبك القطر ده أصلا.. دا حربى يا مدام
متودده اليه بنفس الابتسامه التى تعلو وجهها حيت تقترب إجازه عبد الحميد الميدانيه
- الراجل بتاعى مصاب راقد فى مستشفى عبيد الميدانى .
يهتف الجميع بصوت أشبه بملابسهم الكاكى التى علاها غبار الرحيل من عمق الوادى .
- أدى حكاية جديدة.
استنجدت بأحدهم كان يطوى صفحات مجلة الشبكة يطفو من عينيه السأم
- من فضلك يا دفعه .. فهمنى أنت أعمل ايه ؟
دون اكتراث
- تنزلى من القطر .. دا الحل الوحيد
يستدرك
- هوا جوزك أسمه إيه ؟ أنا مجند فى مستشفى عبيد .. اخصائى جراحة .
بفرحة أم عاد وليدها إلى الحياة بعد كفر الطبيب المعاند
- اذن يمكن تعرفه ... عبد الحميد شبانه .. مجند .. مؤهلات عليا .. دفعه 72
صفق بالمجلة على كفه اليسرى بعد أن طوى صفحاتها
- إمتثال كامل ؟
تتفجر عينيها ضاحكة . . بدا لها لمعان جديد فى عينيه .. أنبسطت أسارير قلبها.

- تودينى له ؟
- مستحيل
- ما تقولش مستحيل

يربت على كتفها .. ترتعش يده بالحنين
- اسمعينى .. الجيش دلوقت منسحب على الكيلو 101 والطريق ملغم شرطه عسكرية ولو شافوكى...
يطلق الحربى صفارته مناديا على الصحراء أن تتسع لما يحمل من أوفرولات كاكى وقلوب بيضاء تهفو إلى العوده صعدا ثنان على مقابض القطار الصدئة .. يكادان يسقطانها .. تري على كتف أحدهما شاره حمراء مستديرة تعلن عن مهمته.
مهمتهم الأساسية القبض على المخالفين.
هكذا يحكى لها عبد الحميد حين يأتى مطاردا بدون ختم على تصريح النزول ...
قبل أن تصل يد الشرطى إلى ذراعها .. تفصل بينه وبين أحد الجنود الجالسين على حافة النافذه متطلعا إلى رصيف محطة كوبرى الليمون وقد أخذ فى الأنسحاب كاشفا عن حوائط المحطة العارية المطلة على ميدان صار لونه مثل الليالى المصمته.
تهتف :
- البركة فيك بقى يا دكتور ...
ما تنساش تخليه يتصل .
حين لامست قدميها رصيف المحطة .. تذكرت أنها لم تعرف أسم الطبيب .. عدت نحو القطار .. صوتها يندفع نحو النوافذ يغالب أزيز العجلات الصدئة :

- يا دكتور ... يا ... دكتور ..
يتوقف القطار فإذا بها أمام عربة الطبيب أيقنت أنه رآها ، تعفر صوتها بكل اشتياقها مطلقة عقيرتها بالسؤال .
- ممكن أعرف عنوانك ؟
لم يرد .. تعيد السؤال .. لا تسمع سوى أزيز صدىء فوق قضبان متهالكة ...
وقبل أن يرحل القطار داخلا إلى قلب حزنها رأته .. كان رجلى الشرطة العسكرية يلتصقان به التصاقا .

18

نصف جسمي الإيسر داخل أرض التدريب ونصفه الأيمن خارج الفجوة التى صنعها العساكر فى السور الشائك .. أجاهد كى لا يلامس أى من العقد التى امتلأ بها السور ملابسى .. ساحبا ذراعى من اسفل الكوع يبتدرنى ابراهيم الزينى
ايه اللى اخرك كل الوقت ده ؟
اعتدل مطمئنا أن قدمى اليمنى صارت على أرض التدريب وخوذتى ملقاه على الأرض أرفع عيناى نحو البقعه الرملية المنتهية عند البحيرة أراهم يجلسون مثل بقع العشب فى أرض جرداء لا يميزهم فى ذلك الفراغ سوى خوذتهم العارية من الكساء ملتمعه فى ضوء الليل القمرى كشافاتهم تبعثر بقعا من الضوء تلامس الفضاء الرحب .. وذؤابات السجائر تشتعل وتنطفىء فى تواتر مشحون بالإنتظار .
- أمال إيه التعليمات ؟
أحس صوته يتردد داخل الظلام المنسحب كأنه لؤلؤة أحتبست داخل محارتها
- فى أنتظار الضابط وجيه .

تذكر قلقه الأصلى الذى لاقاني به عند الفجوة . لكن ما قلتليش
أعرف الزينى حسن يمسك الفضول بأوتار قلبه لا يهدأ حتى
يعرف
- انتظر عليه ... بعدين حاقولك ...بس نخلص من التدريب
أستدرك
- مش نهاية العالم يا إبراهيم .
لكنها كانت نهاية الحديث يقتحم صمت الميدان صوت
الباشجاويش محمد

سرية انتباه
وقفنا ثلاثا .. ثلاثا

عد

حد - تنين - لاته - ناشر - خمس - لاتين
- ارقد
هذه المره كان صوت الضابط وجيه .. له خشونه التراب المشحون
بقلق الليل السرمدى
ممنوع عسكرى يقلع الخوذة مفهوم ؟
والرؤوس تحت رشاش الضابط وجية تغطيها الطلقات الجرينوف
والخوذات المجوفة امتلأت رعبًا .

19

مربع ناقص ضلع أوقفونا رشاشات بورسعيد على أكتافنا والخوذ
تحت اقدامنا والوقوف انتباه كما أمرنا الباشجاويش محمدعيد
زاعقا يدور على كعب قدمه اليمنى إلى الوراء .. يخبط برجله
الارض كانه يستنطقها بالحقيقة الوحيدة المتجلية فى هذا النهار
المنهمر بالعرق فوق رؤوسنا .. حقيقة الصمت الذى يتجلى فى

عيوننا بكل إيقاعات الحزن التى امتلأت بها أركان الصدور ..
يعطى التمام لقائد السرية الضابط وجية .. بدوره الضابط وجية
يلف نفس اللفه للوراء لنجد أنفسنا جميعا ودفعة واحدة نواجه
قائد الكتيبة .. يصيح فينا كإنه ينفخ تراب الصحراء فى الباقى
من مآقينا التى لم تغمض منذ الأمس.
- سلام سلاح
نقبض على خزائن الرصاص الفارغه فى رشاشاتنا بعد التفتيش
الدقيق ترجع أقدامنا اليمنى إلى الخلف وكفوفنا تطرق الخزائن
حتى الألم ...
أرفع يدى كأنى أريد القائد أن يزعق فى أن أنزلها .. فأستريح..
أو أنفجر بها فى الصدر .. وليكن ما يكون .. إذ بالقائد يشير
إلى بإصبع ثابته أخترقت الجميع عينا الباشجاويش والضابط
وجية راشقة فى وجهى
أنا عارفك ياعسكرى .. وصفوك ليه بأنك مثقف ومتدين ..
وكمان صديق الشهيد .
قبل أن تنزل يدى بالحسرة إلى جانبى يضيف.
لذلك أنا حاكلفك أنت بالمهمة تروح تاخذ تصريحك دلوقت
من حظابط وجية
بهلع الأنتظار الذى لم يعد يقبل انتظارا يسلمنا الضابط وجية
لقائد الكتيبة يسلمنا هذا لقائد اللواء
اسمعوا يا رجاله أنا عارف انه خبر محزن .. هذه مشيئة الله
زميلكم الشهيد إبراهيم الزينى مات فى سبيل الواجب ...
قبل أن تأخذ الهمهمة فى التسرب بين أرجاء المربع الناقص
ضلعا يقاطعنا :

والحى ابقى من الميت .. ما نستفيد شيء اذا عاقبنا الضابط وجية على غلطة ماارتكبها الا بمشيئة القدر .

وقبل أن أعى كلمة مما سمعت

- أجازتك كام يوم يا عسكرى ؟

بكل الأستسلام الذى عصفت به ريح التمرد فى حبة القلب أرد بغير رغبه فى الكلام

- سيادة قائد الكتيبة وعدنا بعشر تيام بعد الـ ...

مقاطعا

- الكتيبة كلها عشر تيام .. وأنت خمستاشر .. أنصراف

انتكست كل الرؤوس الأ راسى التى امتلأت بكل الحيره التى فى الكون ... أخذت قدرتى على الفهم تتآكل شيئا فشيئا .. ولم يبق فى أوردتى الأ خيبتى أمام تلك المهمة .. أن أذهب إلى قرية الشعراء أغوص فى وحلها .. كما أغوص فى وحل مازقى .. أزف إلى أهله خبر انتقاله إلى الدار الآخرة .

20

هذه البقعه من حى السلام سلام حقيقى للهاربين من المدينة متأبطين إحباطاتهم ... داخل هذه المخانه ترص الإحباطات كراسى معجونه بالعسل .. تتكركر حتى تذوب دخانا أزرقا سائحا فى جو الكوخ الخشبى فى سكينه ليس يضاهيها سوى سكينه القبور على بعد أشبار قبل أول منفذ للجمرك فى تلك المدينه الجديدة التى خلعت أثوابها حد العرى إلا أحمد خلف أحباطاته من نوع فريد .. قد يلبس الجنس فيها دورا لكنه مجرد دور فى حلقة كبيره تتسع يوما بعد يوم .. أنظر فأرى دخانا أبيض مكتوما ثم ينفرج مندفعا كأنه كوم من السحاب يوشك أن

ينفجر عن برق ومطر وأنا أنتظر المطر يسقط من شفتيه دون جدوى أقول محاولا استدار المطر :

كل الدخان ازرق أمال دخانك أنت أبيض ليه ؟

أخيراً يهبط المطر قطرات من فم يفتر عن ابتسامه مليئه بالغياب:

أصل أنت عندك ميه زرقه

يستطرد بإيقاع مصحوب بقهقهة لا أدرى إن كان بها أم خلت من سرور حقيقى

- الموج الأزرق فى عينيك ترلم .. ترلم ..

تتجه يده بفم الجوزه نحو أنفي أشم لها رائحة اليأس :

- عبد الحميد رجع ؟

مصرا على ادخال فم الجوزه فى أنفى ..

أدفعها نحو صدره

- بيقولوا أجر منده فى شارع الروس ..

أستلم فمه مقدمه الغابه شافطا نفسا طويلا يكتمه بعمق

- بقولك ما تيجى تقعد معانا فى المندره لغاية إمتثال ما ترجع من مصر

أقول مصرا بأسنانى التى بدأت تصطك بردا

- أنت عارف إنى ماليش فى المواضيع بتاعتكم

تذكر انه نسى شيئا مهما ظل يبحث عنه دهرا طويلا :

إيه رأيك ما تسمعنى اخر قصصك القصيره .

فى تلك اللحظة بالذات كنت قد تأهبت فعلا لكتابه قصة قصيره تحكى عن ضياع الأحلام فى الغياب الذى لانهاية له وشيكة ..

اهتزت القاعه على دوى انفجار فإذا بصوت رئيس اللجنة يزعق
- خونه .. سفاحين
ارتمت الاقلام على الأوراق المكدسة فوق المناضد المعفره بتراب الزمن والأهمال .. رفع الجميع عيونهم إليه .. أقترب حثيثا من منضدة قديمة وضعت فى صدر قاعه تصحيح إجابات الثانوية العامه . أرتمى على كرسيه بحركة تتجاوز أبرع الممثلين .... نافثا الهواء الذى كتمه فى صدره المنتفخ دفعه واحدة حريصاً على الا يهرب منه مقطع واحد من قصيده حماس امتلأ بها صدره حتى الغثيان ..
- لو كان فيه اعدام فورى للمنحرفين فى الميادين العامه ما كانش الامور وصلت لهذا الحد
يتبدى عجزه .. يخفض من نبرته الزاعقه مقطعا الكلمات تقطيعا
- توصل الأمور لحد قتل الشيخ الدهبى ؟
يوقن أنه أصاب الهدف إذ العيون تنصب على فمه .. تكتسى كلماته نبرة إطمئنان زائف :
- حا تعمل الحكومة إيه اكتر من كده ؟
توقف قليلا حين اشار احدهم خطأ دون ان يلتقط نفسا كاملا .. يستطرد محملا صوته كل الحنان الذى يتحمله قلب رجل مثله
- أحنا بنعيش فى أزهى عهود الديمقراطية .. كل واحد حر . لأول مره المواطن البسيط يشارك فى صنع القرار .
يتذكر فجأة هدفا مباغتا .. يطلق لصوته العنان .. ترتج القاعه على انفجار جديد .

- غارت أيام الدكتاتورية الناصرية .. أيام ما كان العامل الحقير ماتعرفش تكلمه .. لابد نقذ الدور اللى ...

- بعد اذنك

هتفت ، حريصا ان يصل صوتى إلى أخر مدى بالقاعه حيث كان هو يهتز بكرسية يروم من الجميع الأنحناء .

- الكلام اللى سيادتك بتقوله ضد الإرهاب هو نفسه نوع من الإرهاب.

دون أدنى أنتظار لما أسفرت عنه كلماتى فى صدورهم يلقى فى وجهى بالرد الذى توقعته

- لو حبيت تتكلم بره ماعنديش أى مانع ... عشان ما نعطلش الشغل .

سرعان ما عادت الأقلام الحمراء كالخيول .. تجر كعوبها فوق أوراق الطلبه تصبغها بنفس اللون الذى اصطبغ به حوار الشباب مع الشيخ الذهبى فى تلك البقعه النائية من صحراء الهرم .

فى الصباح الباكر من اليوم التالى ذهبت إلى الرئيس أناوله كتاب اعتذارى مصحوبا برغبتى فى مغادره اللجنة لأمر فورى ناولنى الورقة وعليها توقيعه المرتعش همس فى اذنى :

أنا خايف عليك .. أنت زى ابنى

أبتسمت مطمئنا

- ما انت عارف لازم نمشى امورنا

عندما غادرت اللجنة أيقنت يقين السحاب بما يحمل من مطر أن الجميع يتوقون إلى الرحيل مثلى لولا أن التحقيق فى أنتظار من يغادر منهم قبل الأنتهاء من إراقة كل الدماء المطلوبة من أقلامهم على أوراق الطلاب ودون أنتظار هنأنى الجميع على

الخروج من هذا المنحدر لمدة عام قادم على الأقل ...

22

- تحت أمرك .. أذن أنت اللى تختارى

ما أردت إلا أن أذهب عنها شيئا مما اعتراها ... وقد أخذ الحزن يتسرب إلى دون أدنى مقاومة

- شخصية مصر أذن .. جمال حمدان يكسب

قالت إمتثال بنبرة لا تخلو من إحساس بالرضى عن اختيارى الذى هو فى الحقيقة أختيارها الأصلى :

- ابن اياس يثقب لك عوامة النجاة .

- لكنه بيفكر باللى حاصل

- تقصد شبه اللي حاصل

كنت أتوارى عن عينيها الحزينتين أقلب صفحات ابن إياس تجرى عيناى على أسطر من التاريخ المملوكى .. تقطع على إمتثال هروبى .. تعود بى إلى الجنة الحزينه التى احترقت بها ولعا .

- إينما ذهبت فسوف تجد السم .. حتى فى كأس ابن إياس

- اللعنه على ابن ..

بحسم تقاطعنى ..

- لا تلعنه

- الخيانه

- أذن أنت تعرف

- أحمد خلف حكى لى

- الخيانه يافطة جاهزه لالقاء عيوبنا على الاخرين ...

- لا أشك فى هذا

- لا تنس اننى امرآه ..لكن الخيانه الحقيقية تبقى هى خيانه الوطن

- الكل خ ...

- لا تكمل .. هذا شيء فظيع .. فظيع اكثر من الاحتمال

وأنا على باب المكتبه رحت أتحسس عنوان الكتاب شخصية مصر دراسة فى عبقرية المكان

حين التفت اودعها كانت يداى لم تكف بعد عن الارتعاش

23

اللوحة التى تعلق بها إعلانات الوفيات على باب العباسى اليوم امتلأت كعادتها .. أما الأسماء فكانت أعضاء المجلس الشعبى المحلى تراصت الأوراق تعلن محضر الجلسة التى اتخذ فيها بالإجماع قرار بمنع تعاطى الخمور ..

النص الكامل للحوار جاء بأكمله مؤيدا للقرار صاحب القرار إسماعيل الندوى مقرر اللجنة الشئون الدينيه بالمجلس إلى جانب أشياء أخرى يتمتع بها .. ليس أقلها أنه صار وكيلا لأعمال مجموعه عبد العاطى بصله للصناعات البترولية هي المسأله التى فرشت بها بصرى فى كل أنحاء المسجد بحثا عن عم السيد السنانى كى يحلها لى

أحزننى أختفاؤة .. تلك اللحظة .. أحس باحتياجى إليه أكثر من أي شيء واكثر من اى وقت ... أدور . أدور .. ذهنى يدور .. يدور ..

وتلك المسأله لا تبرح صدرى كلابيبها تمسك بانفاسى.لا أستطيع النوم .. لا أستطيع اليقظة ..

فى الدورة الأخيره عند الركن الذى يلتقى فيه شارع محمد على بناصية عبادى وجدتنى أهتف رغما عنى :

يا عم سيد ورحمة أمواتك قللنا .. أزاى عبد العاطى بصله حايبطل شرب خمره .

24

هذا الصباح من كانون الثانى السابع عشر صحت المدينة .. كسائر المدن تبحث عن دم جديد يعيد إليها الحياه الموشكة على الضياع دم من الفصيلة الاصلية بجينات مغايره لتلك التى دب فيها العفن

هذا الصباح الدم مطلوب عزيز المنال .. دم مسفوح ودم جديد وهتاف من أجل الدم .. يملأ الساحات بالأهازيج.. والدبابات تحتشد بالطرقات تسد مداخل البيوت .. هذا الصباح أستمر الهتاف يملأ ما بين سماء المدن وأرضها المشوقه إلى الأنبعاث ..

فى الصباح الثامن عشر.. الأطفال يلتمسون براءتهم فى الحجر يلتقطونه من الطرقات والأزقة يخرجون به .. يشهرونه فى وجه القلاع ... يتحلقون الجند .. عراة الصدور .. والبطون .. يمارسون طقس الحياة الجديدة .. يفرون من موتهم يحتضنون الحجر ..

يغنون النشيد الأبدى ... اصواتهم ترعد بالغناء .. قلوبهم ترتعش فيها مداخلات الشهوة .

25

ليس بالمعدية سوى بقعه ضوء صفراء يتخللها زخات مطر لها وقع الضوء الباهت ورائحة الترقب الغامضة ،.. وبحرية المعدية قبعوا فى كابينتهم أعلاها يتلاصقون .. حين وصلت إلى بيت عبد الحميد كان الفجر يؤذن بالبزوغ لمحت الطيور تعود إلى

أوكارها معلنه نهاية الليل وعبد الحميد قابلنى رسوله وآخر عرفته مصادفة ..فى الطريق إلي قعدة الحشيش بالدور الأرضى بحا رة بعيده عن العيون والآذان .. قريبة من حدود المدينه التى تعثو فيها القطط الضالة والهوام
يبتدرنى باسما :
- عبد الحميد باعتنى اقولك خلاص الترسانه متحاصره بالدبابات .. حاول تتخلص من اللى أطبع بأى شكل ..

26

الجمعه الأخيرة من رمضان .. سكت موائد الرحمن أبوابها تجمع الناس يلمون ما بقى من القماش تاركين الأعمده شواهد على الكرم الذى حل فى شارع عبادى فى الشهر الكريم على بوابه العباسى حيث كانت حومة السنانى رقدت جثته تنتظر الحاملين وإساعيل الندوى اعتلى المنبر صار الواحد الأوحد الذى يصعده راح يهنىء جموع سكان عبادى ،و التخوم المحيطة .. ومن جاء من أطراف المدينة لأغراض التجارة .. راح يعدد لهم مقاعدهم من الجنة ... والفواكة التى منها يأكلون .. والماء الذى منه يشربون ..صوت إسماعيل الندوى يرتفع .. مجلجلا باللعنات على الكاسيات العاريات ...
وجسد السناسى مسجى فى نفس الزاوية التى اعتاد أن ينتهى اليها كلما اشتدت به المواجد ..

27

- أنظر
وأشارت إمتثال إلى الرصيف المفضى إلى مكتبها
- هل تصدق ما ترى ؟

عقدت الدهشة عقدها فى نخاعى .. هتفت :
- مستحيل
أشارت إلى بضع كراتين حولها على مختلف الأحجام والأشكال لا يجمع بينها سوى كلمات بالانجليزية port said free zone
- شكلكم معزلين
كأن ابتسامتها عصا تهش بها الخوف عنى تتحسس بها من جديد مسارها فى ظلمة الطرقات المعوجة .
- المكتبه تعيش انت .. بح ..
مشهراً سلاحى فجأة فى وجة العدم
- وانتى ؟
- قررت أرجع القاهره
استدركت
- قبل ما يطلعولى هما قرار نقل.
وكأنها تذكرت امرا :
- أو يشغلونى علاقات عامة في المحافظة بتاعتكو
أشتعل القلب وجدا
همست :
- فظيعة
نظرت بعيدا نحو البحر الذى انحسرت امواجة من خلفنا فيما وراء الكورنيش الملاصق للرصيف الذى يمتلىء بالكراتين :
- ايه هيه ؟
- بتاعتكوا .. كلمة جديرة بالتأمل.
غاضت الابتسامة فجأة على شفتيها
- ما تصدقش

ثم وهى تطرق إلى الأرض
- أوعى عمرك تصدق
تساءلت
- القاهرة ؟ دلوقت ؟
نفضت عن يديها ترابا علق بها من اثر تشوين الكتب
- القاهرة دائما
عادت الأبتسامه تنير وجنتيها .. رأيت جمالا استوحشته إلى حد الموت ...
أستطردت وهى تتطلع بعيدا نحو الحد الفاصل من المدينة
- لكن أوعى تصدق تانى .. أوعى تصدق

انتهت

نبراس للنشر والخدمات الاعلامية
ت : ٠٦٤/٣٣٤٣٧٤